تحت مرمى دبابات شارون بين طريق السلام المسدود وطريق الحرب الممنوعة

لن تتركنا المعارك ولو تركناها! لن يسالمنا الإسرائيليون ولو سالمناهم! لن ينصفنا الغرب ولو سمينا مسلخ سياسته ساحة عدل! لن ننعم بالهدوء والسكينة ولو كان شوقنا إليها أشد من شوق أي شعب في العالم! وما بين اشتباك واشتباك ستكون هناك فترات هدوء نسبي، وفترات هدوء أطول، ولكن طابع الصراع سيظل غالبا.

كل دور من أدوار الصراع يؤكد لنا ؛ ويجسد أمامنا ؛ ويعيد إلى أذهاننا على نحو متجدد ؛ تلك الرؤية النبوية التي اخترقت حجب الزمان والمكان، وتحدثت قبل ما يزيد على أربعة عشر قرنا عن الرباط المكتوب على أهل هذه البلاد، وعن الطائفة الظاهرة على الحق التي لا يضرها من خالفها حتى يأتي أمر الله وهي كذلك.

ولا حاجة بنا للعودة بعيدا إلى الوراء لنبرهن على ذلك. ويكفي أن نتذكر الأعوام المائة الأخيرة. فلم تكن فلسطين قد بلغت نهاية العقد الثاني من القرن بعد خروجها من حرب أكلت الأخضر واليابس هي الحرب العالمية الأولى حتى شهد ربيع عام ١٩٢٠ ثورة موسم النبي موسى التي نشبت بسبب اكتشاف العرب أهل البلاد أن البريطانيين ماضون في تنفيذ سياسات وعد بلفور وصك الانتداب. واستشهد برصاص البريطانيين آنذاك أربعة فلسطينيين وصدرت الأحكام الجائرة بحبس ثلاثة وعشرين فلسطينيا. وقالت (لجنة بالين) البريطانية التي كلفت بالتحقيق في سبب الثورة إن البريطانيين " يواجهون مواطنين محليين يهيمن عليهم السخط الشديد بدافع من شعورهم بالغبن وخيبة الأمل ويلفهم الخوف بشأن مستقبلهم ".

وبعد سنة واحدة لا أكثر أي في ربيع ١٩٢١ نشبت ثورة يافا التي تفجرت لأسباب مشابهة، ولاكتشاف عمال العتالة العرب في ميناء يافا أن اليهود يستوردون أسلحة في براميل مسجلة بوصفها براميل زفت. واستشهد في هذه الثورة مائة وسبعة وخمسون فلسطينيا وجرح نحو سبعمائة. وجاء تقرير لجنة القاضي البريطاني هايكرفت ناطقا بأن " ثورة الأهالي ترجع إلى خطة الحكومة البريطانية بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين وتذمر الأهالي من محاباتها لليهود وعرقلتها استحقاق الاستقلال الفلسطيني."

وبعد ثماني سنوات نشبت ثورة البراق عام ١٩٢٩ بسبب تزايد هجرة اليهود إلى فلسطين وتواطؤ حكومة بريطانيا معهم. أما سببها المباشر فكان محاولة المستوطنين اليهود الاستيلاء على حائط البراق بزعم أنه حائط المبكى. وقد سقط في هذه الثورة مائة وستة عشر شهيدا ومائتان واثنان وثلاثون جريحا. وكلفت بريطانيا لجنة تحقيق جديدة برئاسة البريطاني (شو) وجاء تقرير اللجنة مرة أخرى يقول إن أسباب الثورة هي " شعور العرب بالعداء والبغضاء لليهود، وهو شعور نشأ من خيبة أمانيهم السياسية والوطنية وخوفهم على مستقبلهم الاقتصادي ".

وبعد ست سنوات لا غير، نشبت ثورة القسام عام ١٩٣٥ للأسباب السياسية نفسها، ناهيك عما اتضح للناس من استفحال أمر التحضيرات العسكرية التي يقوم بها التنظيم الصهيوني في فلسطين، فاتخذت ثورة القسام طابع الكفاح المسلح بالنظر إلى عدم إفلاح الاحتجاجات السياسية السابقة في تغيير شئ أو تحقيق نتيجة تذكر. وكانت هذه الثورة مقدمة لدور قادم من الكفاح المسلح، لم توقفه إلا الحرب العالمية الثانية. وقد استشهد الشيخ عز

الدين القسام قائد تلك الثورة وأربعة من رجاله ففجر استشهادهم ثورة جديدة أعنف وأشد من سابقتها.

تلك هي ثورة ١٩٣٦ الشهيرة التي بدأت في ربيع ذلك العام بإضراب الستة أشهر (أطول إضراب في التاريخ) وتطورت إلى ثورة مسلحة شاملة ضد البريطانيين والصهيونيين استمرت حتى أواخر عام ١٩٣٩.

وبعد ثمانية أعوام أخرى بدأ انفجار حرب فلسطين عام ١٩٤٧، وتصدى العرب أهل البلاد لعصابات الهاجاناه والأرجون وشتيرن التي كانت تنتمي إليها جميع الأجيال الكبيرة من قادة إسرائيل. وعلى الرغم من فداحة الخسائر التي تكبدها الفلسطينيون بسبب ضعف إمكانياتهم وتدريبهم فإنهم لم يدخروا وسعا في الدفاع عن وطنهم ولم يفرطوا في حقوقهم. وإنما حدثت النكبة بعدما استلمت الأنظمة المرتبطة بالبريطانيين قيادة المعركة وأجرت بعد حين الانسحابات الكارثية التي أدت إلى إخراج أهل البلاد من بلادهم.

ولم تتوقف نضالات الفلسطينيين بعد نكبة فلسطين. وإذا كانت تلك النضالات قد تجلت في عمل الفدائيين الفلسطينيين تحت قيادة أجهزة عربية، فإن ثمة تجليات أخرى ذات ألوان سياسية واجتماعية وثقافية وفنية. وكلها ناطقة بأن الفلسطينيين لم يتخلوا عن قضيتهم، ولم ينسوا وطنهم، ولم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام ظرف عسير، بل أبدعوا في كل ظرف ما يناسبه من فعل أو من رد فعل.

الواقع أن من يتأمل فيما يفعله الأطفال والشبان الفلسطينيون في سياق هذا الدور الراهن الذي يدعى انتفاضة الأقصى، بل والذي يتأمل في فعاليات الانتفاضات المختلفة بما فيها انتفاضة ١٩٨٧ ١٩٩٤ سيلاحظ بوضوح أن هناك شيئا من الإعجاز في التراث الكفاحي لهذا الشعب والتجارب المتوارثة أبا عن جد،

وقبل الدور الذي واجهنا فيه شارون

نحن الفلسطينيين لدينا التجربة المتصلة.. لدينا

من الواجب عندما نخرج بنتائج غير مستحبة أن نبحث عن أسبابها البعيدة وليس القريبة فقط. وعندما نفرغ من استنباط الدروس المستفادة أن